اليأس في الحب

للكاتب الفرنسي بلزاك — بقلم الأستاذ محمود الخفيف

عندما اعتزم الملك هنرى الثامن تزيين قاعة « امبواز » ، جاب إلى تلك القاعة عدداً من مهرة الصناع ، ثمن مشاهير النحاتين إلى أساطين النقش والزخرفة إلى غير هؤلاء وهؤلاء من أعاظم البنائين ورجال العمارة ؛ ولقد زين هؤلاء ردهات القاعة بآيات فنونهم ، بيد أن الاهمال قد شوه ما أبدعت أيديهم من زمان بعيد .

وكان ذلك العمل يومئذ حديث الحاشية وشغلها إذ كان الملك كما هو معروف ، يهتم بأن يرى بنفسه مبلغ ما تجود به قرائح هؤلاء الرجال .

وكان بين هؤلاء الفنانين شاب إيطالى يدعى أنجلو كابارا ؛ وهو رجل مشهور المقام ، وثيق الكفاءة ، حتى لقد كان على الرغم من حداثة سنه يبذ أقرانه جميعاً فى النحت والحفر . ولقد دهش الناس يومئذ أن رأوا رجلاً مثله فى ربيع حياته الباكر ، يصل إلى مثل ما وصل إليه من نبوغ . حقا كان ذلك عجبا ، إذ لم يكن يبدو على محيا ذلك اليافع إلا اليسير من تلك الشعرات التى تشير فى الرجال إلى اكتمال رجولتهم واستوائهم .

ملك هـــذا الفتى الايطالى قلوب الأوانس وشغفهن حبا ، إذ كن يرينه جميلاً ساحراً كالحلم كما كن يرمقنه حزيناً كاسفاً كالطائر الجميل ثوى فى عشه ينتب موت إلفه

وكان أنجلو فقير الحال ؛ ولقد ذاق هذا النحات الفـذ آلام الفاقة ، وخبر شقاء العيش ، وأدرك مبلغ ما يضمه الفقر فى طريق الحيـاة من صعاب وعوائق ؛ عاش عيشة ضنكا ، يقنع باليسير من الطعام ، ويخجل من إعوازه وإملاقه ، ولا يستغل مواهبه إلا فى أشـد حالات اليأس ؛ وكم كان يود أن تتاح له الحياة الهادئة الساكنة التى بعـدها أحسن حياة لهؤلاء الذين تمثلى رؤوسهم .

أتى ذلك الايطالى الحيى ذات يوم إلى الحاشية فى أحسن حاله ؛ ولقد عقد حياء الشباب لسانه كما حال سوء طالعه دون أن يسأل الملك أجر عمله . ولما رأى الملك من هندامه ما رأى ظنه رائعاً ناعماً لا يموزه شئ . ولقد اعتاد رجال الحاشية كما اعتادت الأوانس أن يظهروا إعجابهم بسحر بنانه ، كما كانوا يعجبون بشخصه . ولكنه مع ذلك كان لا يصل إلى يده شئ من المال .

وكان الجميع ، وعلى الأخص النساء ، يرونه غنيا بما وهبته الطبيعة من سمات الجمال . من أجل ذلك حسبوه شبابه وشعره الطويل الفاحم وعينيه اللامعتين من ذوى الثراء ؛ ولم يخطر لهم الكسب فى بال ، بينما هم يفكرون فى تلك الأشياء وفيما وراءها . ولقد كانوا فى زعمهم محقين ، إذ طالما أتاحت مثل هاتيك الصفات للكثيرين من سفلة الحاشية أن

ينعموا بالضياع الواسعة والمال والجاه .

وكان أنجلو على الرغم من مظهره الذى أفاضه عليه شبابه ، لا يتجاوز العشرين من سنى حياته ، ولم يك على حداثته غرا ؛ وكان كبير الدهاء ، يمتلئ رأسه بالشعر ، وفضلاً عن ذلك كان من ذوى الخيال البالغ السمو . ومع أنه كان قليل الثقة بنفسه شأنه فى ذلك شأن غيره من مساكين الناس وتعسائهم ، كان يدهش لنجاح الأغفال الجهلاء . ولقد كان يتوهم أنه قد ركب فى فطرته بعض الخطأ ، فهو ناقص إما فى جسمه أو فى عقله . على أنه أمر تلك الأفكار فى نفسه ؛ كلا ! بل لقد كان يشكو حاله فى ضوء النجوم إلى الأطياف الحائمة وإلى بارئ السموات ، وإلى الشيطان ، وإلى كل ما يحيط به !

كان فى مثل تلك اللحظات يرمض الألم نفسه أن حياه القدر مثل ذلك القلب المتوقد الذى ما كان يشك أن النساء يتقينه كما يتقين قطعة الحديد المحماة ؛ ولكنه كان يقول فى نفسه إن هذا القلب هو الذى يعرف الحب حقا ، فاذا ما أحب عادة فأى حب ذلك الذى كان يفيضه قلبه ! وأى إعزاز ذلك الذى كان يحيطها به طول حياته ! وأى إخلاص ذلك الذى كان يربط شخصه بشخصها ! أجل ! لو أتيح له الحب ، فانه يخدم حبيبة نفسه بكل ما علك من عاطفة ، ويكون أبداً رهن إشارتها ، يبتكر من دواعى السرور وأساليب التسلية ما يدفع به ما عساه أن يعقده الهم حولها من سحب خفيفة ، أيام يغشى السماء سواد الغمام .

كان يمثل له خياله أحياناً فتاة يجعلها هواه فؤاده ، فيروح يلقى فى الخيال نفسه على قدميها ، ثم يضمها إليه ويطبع على وجنتيها من القبلات ما شاء له الهوى ويطوى بساعده خصرها ؛ وفى عمله هذا من الحقيقة بقدر ما فى خيال السجين وهو يتمطى بجسده على العشب الأخضر الذى يتراءى لعينه خلال قضبان سجنه : وفى لحظة عناقه يطلب إليها السفح والمغفرة ، ثم يذهله عن نفسه حدة شعوره ، فيمعن فى عناق خليلته حتى ليوشك أن يقطع عليها أنفاسها ، وينقلب على الرغم من تحشمه ووقاره جريئاً لهجاً ، فيمض بأسنانه طرف فراشه فى حدة وانفعال باحثاً عن فتاته الخيالية ؛ وهكذا يرى نفسه شجاعا فى عزلته ، بينما تراه يستولى عليه الخجل فى عنده إذا مر فى طريقه باحدى الفتيات !

على أن تلك الأحلام الجميلة : أحلام الحب كثيراً ما كانت تحفزه إلى العمل فيقبل على منحته فيصور به وجوهاً جميلة ، ويبرز صدوراً ناهدة ، عليها من فاكهة الحب ما يتحاب لمرآها ريق الناظرين ، هذا فضلاً عما كان يلده خياله من فنون الجمال وصوره . وكان النسوة يدلين بآرائهن عن تلك الآثار وهن مأخوذات بجمال مبدعها كابارا الفتى . وكان كابارا يحدجهن من أعلى إلى أسفل ، وهو يقسم جهد أيمانه أن مدت إحداهن إليه أصابعها مرة ليقبلها ، ليصلن منها إلى ما تشتهى نفسه

وجاءته ذات يوم إحدى أولئك النسوة المدلات بسمو درجتهن ؛ جاءت بمفردها تسأل الشاب الايطالى ماذا يخجله ، وتستفهمه ألا تستطيع واحدة من نساء البلاط أن تجمل منه حديث مجالس ورجل « صالونات » ، ثم دعته فى رقة وظرف الى أن يزورها فى بهوها تلك الليلة .

ورش أنجلو على جسده ما وسعه من العطور واشترى قبعة من القطيفة يطرزها شريط مزدوج من الحرير ، كما استعار من صديق له عباءة واسعة الردنين ، وحلة تزينها الخيوط ، وسروالاً من الحرير ، واتخذ سبيله إلى منزل مضيفته ؛ وصعد السلم بقدمين

خليفتين يلمع الأمل فى مقلتيه ، ولكنه لا يدرى ماذا يفعل حيال قلبه ، وقد كان يثب فى صدره ويخفق فى عنف وسرعة . كذلك كان يتساقط العرق على ظهره

كانت السيدة وافرة الحظ من الجمال ، وكان كابارا لاريب يفطن إلى ذلك ، فهو فى فنه ملم بتكوين الذراعين ، خبير بما يحد الجسد ويبرز جماله ، عليم بما يحيط بالأنثى من سر يذيع فى جسدها السحر ، إلى غير ذلك من خفايا الجمال وخبيئاته . ولقد رأى صاحبته ترضى بتكوينها أدق قواعد الفن ؛ وفضلا عن فتنة ملامحها ورشاقة قوامها ، كان لها صوت تضطرب له النفس من أعماقها ، صوت يضرم جذوة القلب ، والعقل وجميع الحواس . وجملة القول لقد كانت تلك السيدة تبعث بجمالها فى خيال المرء من أطياف الحب الساحرة مالا تفكر هى فيه ؛ وتلك هى خاصة أولئك النسوة اللعينات !

وجدها النحات جالسة على مقعدها إلى جانب الموقد ، وسرعان ما بدأت الحديث فى يسر ، ولو أن صاحبها لم يجد لديه جوابا غير لا أو نعم . خذلته حنجرته فلم تقو على نطق ، وخانه عقله فلم يجد بفكرة ؛ وظل يمتع نفسه بأطالة النظر إلى تلك الحسناء والاصغاء إلى صوتها ، تلك السعادة التى ما كان يحجم عن شرائها بضرب رأسه إلى جانب الموقد ! وكانت صاحبته تلعب أمام عينيه كالفراشة الجميلة فى ضوء الشمس . وعند منتصف الليل غادر النحات الصغير المنزل تشع بالسعادة نفسه ؛ ذلك أنه فى أعجابه الصامت قد ألغى نفسه وعشيقته بسلكان فى هون طريق الحب الباهر

وفكر وهو سائر فى طريقه ، فراح يقول لنفسه : إذا سمحت سيدة نبيلة له أن يجلس إلى جانبها هكذا أربع ساعات من الليل ، فما يظن هناك أنه ممنوع فى أن تسمح له بذلك بقية الليل ، ولما استخلص من تلك المقدمات بعض النتائج البهيجة السارة عقد النية على أن يطلب إليها كامرأة ساذجة ما يشتهيه من حظوة ، ثم صمم أن يقتل أى شخص يعترض طريقه ؛ يقتل الزوج أو المرأة ، أو يقتل نفسه ، فذلك خير عنده من أن يسمح لأحد من أن يفوت عليه ساعة استمتاعه التى يتوخاها . حقاً لقد ذهب الحب بعقله ، وصار من جنونه أنه يعتقد أن الحياة رهان صغير فى ميدان الحب ، ما دام أن يوما واحداً من أيامه يعدل ألف حياة !

أخذ الابطالى الصغير منحته وراح يسوى تمثيله ، ولكنه كان يفكر فيما كان من أمر تلك الليلة ، ولذلك فكم شوه من أنوف كان يفكر فى سواها ! ولما فطن إلى ذلك نفض من العمل يده ، ورش المطور على ملابسه وانطلق إلى خليلته يستمع إلى أحاديثها المذبة ، وهو يؤمل أن يحول كلماتها إلى حقائق . ولكنه حينما وجد نفسه بين يدى ملكته سيطر عليه جلالها النسوى ؛ وأحس كابارا المسكين وهو ذلك الأسد فى الشارع أنه من النعاج وهو يحدج فريسته

ولكنه على الرغم من ذلك حينما ألحت عليه الرغبة لم يحجم عن تطويقها بذراعه ، ثم استجمع قوته واغتصب منها قبلة . وكان ذلك الاغتصاب مدعاة سرور لنفسه . فعادة النساء أن يعدن فيتمسكن بحق المنع والذود عن أنفسهن إذا جدن بقبلة ، ولكنهن إذا أرغمن على منحها أو إذا سلبنها لا يسعهن إلا التسليم بعدها بألف من مثلها ! وذلك يفسر لنا السبب فى أن الكثيرات منهن يأبينها إلا اغتصابا ! ولقد استطاع ذلك الابطالى أن ينال من تلك القبلات عدداً ، وخيل إليه أن الأمور سائرة كما يحب ، لولا أن صرخت تلك السيدة التى كانت من قبل ضنينة قائلة : « زوجى ... » . ولم يك ثمة غير الرحيل فقد عاد

ساعتئذ ذلك السيد من لعبة التنس ؛ وخرج النحات تشيعه عادته بنظرة حارة ، إذ بوغتت ساعة نشوتها !

وظل نصيب الفتى الايطالى من عشيقته على هـذا النحو لا يتغير زهاء شهر ؛ لا يكاد يصل إلى حافة ما يريد حتى يحضر الزوج . وكان حضوره أبدا فى تلك اللحظة التى تقع بين التمنع وبين الملاطفة التى تعقبه ، ويريد بها النساء أن يلطفن من وقع إبائهن ، وهن بذلك إنما يجددن الحب ويزدنه قوة على قوة !

وأخيراً نفد صبر ذلك الفتى ، فأراد ذات ليلة أن يختصر الطريق إلى غايته ، فتخطى إليها ضروب المنازلة فى جرأة وسرعة ليتم له الظفر قبل مباغتته ، ولكن عادته وقد قرأت فى عينيه ما انتوى تنكرت له بعض التنكر والتوت عليه بعض الالتواء : أخذت أول الأمر تتظاهر بالغيرة لتمهد السبيل للطعن فى الحب وإعلان سخطها عليه ؛ ثم عادت فأطفأت قليلا من غضب صاحبها بندى قبلة ؛ واستأثرت بعد ذلك بالكلام ، وراحت تؤنب عشيقها وتعلن إليه أنها تحب ممن تهواه أن يكون خيراً وأن يظل مطيعاً لمشيئتها ، وإلا فان تضع بين يديه حياتها وروحها . كما راحت تفهمه أن رغبته فى نيل وطره تدل على أنه ينظر إلى الحب نظرة وضيعة شأن أيسرها قربانا . ولذلك ترى نفسها أكثر شجاعة منه ، لأنها وقد أحبته أكثر مما يحبها قد ضحت أكثر مما يضحى . وكانت تجيب على اعتراضاته بقولها : « الزم الصمت أيها السيد » ؛ تلقيها فى لهجة الملكة ومظهرها . وفى بعض الأحيان كانت تقابل تقريع كابارا ولومه بنظرة عاصبة ، إلى أن صارحته قائلة : « إن لم ترض نفسك على أن تكون كما أحب ، فان أهبك حبى بعد اليوم »

ورأى الايطالى أن حبها لم يكن حباً نبيلاً ؛ وإنما كان حباً لا يستمتع به العاشق ، كمال البخيل لا يستمتع به وإن فاضت به خزائنه ؛ ورأى تلك السيدة تلهو بأن تدعه حول السياج يثب ويقفز هنا وهنالك ويعتبر نفسه مالك كل شىء ، إلا أن يقرب من حديقة الحب

بلغ من حنق كابارا مما صار إليه أمره أن أصبح وحشيا لا يحجم عن قتل أى إنسان ؛ ولذلك جمع بعض من يثق بهم من رفاقه ، ووكل إليهم مهاجمة الزوج وهو فى طريقه إلى منزله ، بعد أن يفرغ من لعب التنس مع الملك . وانطلق إلى عادته فى تلك الساعة التى يخلو فيها لقاء العاشقين وتطيب المغازلة والمداعبة . ولقد كان حظه من ذلك وافراً تلك الليلة ، لم يدع وسيلة من وسائل اللهو والمزاح إلا أداها فى حماسة وأناقة . أجل ، لم يحرم سوى تلك المتعة التى يتحاشى الكتاب عادة ذكرها ، لما يرونه من شناعة أمرها . واتجه المجلو إلى خليلته على حين غفلة قائلا لها :

« يا عدتى الفاتنة ، أتحبيننى أكثر مما تحبين أى شىء ؟ »

ولما كانت الكلمات لا تكلفها شيئاً أجابت قائلة : « نعم » فقال :

— « هذا حسن ، إذن فلتكونى لى فعلا كما أنت لى قولاً » فقالت له :

— « ولكن زوجى عائد بعد برهة » فقال :

— « أذلك هو السبب الوحيد ؟ » فقالت :

— « نعم » فقال لها :

— « قد وضعت فى الطريق بعض أصدقائى ، وسيعترضونه ولا يطلقونه حتى أعدو النزل وأرفع شملة فى هذه النافذة ؛ فاذا رفع إلى الملك شكواه فسيدافعون عن ذنبهم بأنهم حسبوا أنفسهم يمازحون صديقاً من طبقتهم »

— « آه يا عزيزى ! دعنى أتأكد من أن كل إنسان هنا نائم فى مضجعه »

ثم نهضت فأسرعت إلى القادة ورفعت يدها الشعلة : ولكن كابارا لم يكد يراها تفعل ذلك حتى وثب فأطفأها ، واستل سيفه ، وواجه تلك المرأة التي تبين في عينها روح الازدراء وخبث النية وقال :

— لست أريد قتلك أيتها السيدة ، ولكني أريد أن أشوه جمال هذا الوجه ، بحيث لا تستطيعين بعد ذلك أن تلمي بأفئدة هؤلاء الفتيان الذين تضيعين حياتهم . لقد عملت على خديعتي بأساليب مخجلة ، وتبين لي أنك امرأة لا تعرف معنى الاحترام . يجب أن تتعلمي أن القبلة لا تنقع غلة عاشق ، وأن الفم الذي ذاق طعم القبلة لا ينفك يطالب بما بعدها . لقد كنت سبباً في شقائي ، وستظل حياتي أبدا بعد اليوم تعسة مظلمة ، والآن أريد أن أجعلك تتذكرين إلى الأبد موتى ، ذلك الموت الذي هيأت أنت أسبابه . سوف لا تقفين بعد ذلك أمام المرآة إلا ترين وجهي إلى جانب وجهك »

رفع بالسيف يده ليقطع به صفحة خدها الناضر ، ذلك الخد الذي مازال يحمل آثار قبلاته ، فصاحت به المرأة قائلة : « تباً لك من شقي ! » فقال لها :

— « كفي عن الكلام ... لقد أخبرتني أنك تحبينني أكثر مما تحبين أي شيء ، والآن تحبينني بحديث آخر ... ظللت ترفعينني كل ليلة درجة نحو السماء ، حتى رأيتك تلقينني بضربة واحدة في الجحيم ، وظننت أن ثيابك تحول بينك وبين نقمة عاشق غاضب ... كلا ! »

وأجابت القادة وقد استولى عليها الدهش لمرآى ذلك العاشق الذي يلتهب غضباً قائلة :

« آه ! أنجلو ! حبيب قلبي ! إني لك . »

ولكنه تراجع إلى الوراء ثلاث خطوات ، وأجابها بقوله : « أيتها المرأة ... أنت يا امرأة البلاط ، يا صاحبة القلب الشقي ... إنك إذن تحبين وجهك أكثر مما تحبين عشيقك »

عندئذ شاعت في وجهها الصفرة ، ورفعت ذلك الوجه ، وفطنت في تلك اللحظة إلى أن مكرها قد أفسد عليها حبها . أما أنجلو فقد حمى خدها بسيفه وفر هارباً من المدينة كلها . ودخل الزوج فأتى إمرأته وقد نال خدها الأيسر ما ناله ، ولكنها لم تتبس بكلمة على الرغم مما كانت تعاني من ألم . لقد أحبت كابارا أكثر مما تحب الحياة نفسها ؛ ولكن الزوج أصر على أن يعرف من فعل هذا بامرأته . واتجه بنظره إلى كابارا ، وقد حامت الشبهة حوله ، فرفع أمره إلى الملك ، وأمر الملك فجيء بذلك الايطالي وسيق إلى الاعدام في « بلوا »

وفي غداة اليوم الذي عين لتنفيذ الحكم قدمت سيدة نبيلة ، وقد حفزتها رغبة شديدة إلى محاولة انقاذ ذلك الشجاع الذي رأت فيه عاشقاً كامل وأكمل ما يكون العاشق . توسلت تلك السيدة إلى الملك أن يهبه لها ، فقبل توسلها في غير عناء . ولكن كابارا أعلن أنه لن يعرف امرأة ، ولن يدين لامرأة غير تلك السيدة التي تيمته . ولذلك رأى أن يلتحق بالكنيسة ، ومن ثم أصبح كاردينالا وعالما من كبار العلماء . واعتاد أن يقول في شيخوخته إنه عاش ما عاش من سني حياته على ذكرى تلك اللذات التي ذاقها في ساعات نزواته ، إذ كان باق على يدي عادته أحسن ضروب المعاملة وأسوأها معاً . على أن هناك من يقولون إنه لم يلتحق بالكنيسة وأنه نجح بعد ذلك في تهيئة حياة هادئة مرضية مع تلك التي ملكت قلبه . ولكني لا أصدق هذا القول ، لأن كابارا كان رجل عاطفة يعرف حق المعرفة قوانين الحب المقدسة

الضيف